

الأفغاني ومنهجه في التعامل مع الآخر

الأستاذ سعيد شبّار

شعبة الدراسات الإسلامية/بني مراك/المغرب

توطئة :

ليس من أغراض هذه الورقة -فيما حدد لها من مجال- تتبع أقوال وأعمال الأفغاني الإصلاحية فيما يراه من انحرافات وأسباب أدت إلى انهيار الأمة وتعطيل حركتها وفعاليتها وموت الحس الرافض فيها لكل استبداد قهر وظلم . . ، وما يقترحه لذلك من أدوية وعلاجات .

وإن كان مافعله الأفغاني ههنا، مرجعياً ومنهجياً، يعتبر سابقة في التشخيص والعلاج وتحديد الأدواء والأدوية ، لا تكاد توجد عند من تقدمه من زعماء الإصلاح والتغيير في الأمة إلا بمقدار ، أفراداً أو مؤسسات . وقد يكون هذا بدهياً إذا اعتبرنا الأفغاني أو حركته وريثة خلاصات تلك التجارب ، هذا فضلاً عن قوة الحركة ذاتها وقدراتها على الامتداد والتوسع والتأثير زماناً ومكاناً، حتى إنه ليتمكن رد معظم -إن لم يكن كل- خيوط شبكة الفكر الإصلاحية الحديث والمعاصر إلى هذه المدرسة .

يكفيينا من ذلك أن نشير إلى خلاصات مركزة لتلك الجهود لها علاقة بما نحن بصددده بخصوص العلاقة مع «الآخر» . فنجد أن أصول الانحراف والخلل والوهن في الأمة أربعة كبرى تتحدد عنده فيما يلي :

* أصل جامع في الانحراف هو الابتعاد عن الدين بأحكامه وشرائعه ومبادئه وقيمه الأخلاقية . . وما ترتب عن ذلك من ظهور البدع والضلالات ، وانتشار الجهل والخرافة ؛ بحيث تبقى العلل الأخرى تابعة لهذا الأمل ونابعة منه بشكل أو بآخر .

* انفصام عرى الوحدة الفكرية في الأمة بانفراط عقدها الناظم ، وتوزعها إلى فرق ومذاهب زادها إغراقها في الفروع والحزبات والجدل النظري الصوري تشعباً في الخلاف وإهمالاً لتأطير قضايا الأمة والاحتياجات الفقهية والعقدية . . لواقعها المتجدد .

* فساد نظام الخلافة والحكم بانفصال السلطتين العلمية عن السياسية ، وطغيان مظاهر الجور والاستبداد وإيثار المصالح الفردية على الجماعية مما أدى أيضاً إلى تجزئة مماثلة لعرى الوحدة الفكرية على المستوى السياسي ، وذلك بانقسام الخلافة وانفراط وحدتها وبروز العصبية الجنسية من جديد بعد أن أذابها الإسلام ، حيث فقدت الدين ووحدة الجنس معاً . . .

* النفوذ الخارجي الأجنبي : سواء تجلّى في عدوان استعماري قديم أو حديث وما ألحقته من دمار وخراب باقتصاد الأمة ومقوماتها المادية ، أو في غزو فكري ، قديم أو حديث وما ألحقه بنظام الأمة الفكري من تحريف وتشويه وتبعية واستلاب ، أو في تحكم سياسي بوجود «الأغرب» بمراكز القرار وتلاعبهم بمصالح الأمة وأموالها . . أو من ينوب عنهم من أبناء الأمة في ذلك . . .^(١)

ولا يخفى أن هذا العامل الأخير هو مظهر ونتيجة سننية في الانحراف إذا ما تقدمته العوامل والأصول الأخرى ، خاصة وأن المراهنة الكبرى للاستعمار الغربي هي على عنصر التجزئة والتفتيت في الأمة . ولست أبالغ إن قلت إنه «الشرك» المناقض للتوحيد الذي بنى عليه الدين كله ، إذا فهم التوحيد في شموله وامتداداته التي تطل مناحي الحياة المختلفة . فلا تختلف مظاهر تعدد الألهة

^(١) انظر في تفصيل هذه العوامل وإضافات عليها ما ذهب اليه علي شلش من كون أعمال الأفغاني تتمحور حول : الدفاع عن الإنسان بصفته أسمى المخلوقات وتوعيته بوظيفته الاجتماعية وبمسؤولياته . الدعوة الى تحكيم العقل بصفته أعلى ما عند الانسان من صفات وحضه على التزود بالمعارف والعلوم . مقاومة الاستبداد بصفته معطلة لحركة الانسان على الارض وقاتلاً للملكات العقل . -رفض التدخل الاجنبي أو ما نسميه الاستعمار في جميع اشكاله . الإيمان بضرورة الوحدة الاسلامية تحت أية راية . . حتى ولو كانت للخليفة العثماني المستبد ومحاربة التفرق والتعصب للشيخ . (سلسلة الاعمال المجهولة ، جمال الدين الأفغاني . تحقيق وتقديم علي شلش . رياض ريس للكتب والنشر . وانظر في ذلك أيضاً : محسن عبد الحميد ، جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه . (مؤسسة الرسالة ، ط ٢ / ١٤٠٦ - ١٩٨٥) . . وكتابات محمد عمارة في الموضوع .

المعبودة النافية للتوحيد في العبادة عن مظاهر تعدد المذاهب والفرق والأحزاب النافية للوحدة الفكرية في الأمة وقوة صفها وتماسك ذاتها، والمعضل لرسالتها وصفات الخيرية والشهادة والوسطية فيها. نفهم من خلال ما تقدم أيضاً لماذا كانت حركة السيد جمال الدين قوية على الواجهتين معاً، واجهة الأمة بمحاولاته رآب صدعها والدعوة إلى وحدة صفها وتقوية بنيانها ورفع لذلك شعار «الجامعة الإسلامية» ومواجهة الاستعمار الغربي بكشف أهدافه ونواياه ومساغيه الخبيثة في إذلال الأمة وإخضاعها لرغباته ونزواته.

تشكل الواجهة الأولى «الأنا» المحددة للذات العربية والإسلامية، والأرضية الفكرية والسياسية والدعوية لحركته، كما تشكل الثانية «الآخر» المخالف لتلك المرجعية والمناقض لها. وقد يتسع معنى «الآخر» عند الأفغاني ليشمل عناصر ومكونات إيجابية في التجربة الغربية، ولا يقتصر فقط على الوجه الاستعماري الاستبدادي في الحاضرة الغربية. كما قد يتسع عنده معنى «الأنا» ليشمل المخالف من داخل الذات العربية والإسلامية. وبين هذه الأنا والآخر حاولنا تحديد جملة عناصر نستوضح من خلالها منهج الأفغاني في تعامله مع الكيان الغربي، والاستعماري منه على وجه الخصوص. منها توضيح وجهة نظره في الغرب بمحاسنه ومساوئه، وتحركه في مواجهة الغرب الاستعماري وخدمة أمته سواء من داخل الخندق العربي الإسلامي أو من داخل الخندق الغربي ذاته، هذا فضلاً عن مواجهاته الفكرية والنظرية لبعض رواده وأقطابه أو مذاهبه وتصوراته وأديانه ومعتقداته^(١).

^(١) بخصوص تراث الأفغاني وأعماله فبالرغم من الجهود المبذولة لجمع ذلك ما تزال جوانب منها مجهولة خاصة رسالاته ومقالاته غير العربية، لكن القسط الأوفر منها مدون بجهود عديدة تبذل بمحمد عبده ورشيد رضا (في تاريخ الاستاذ الامام) .. وتنتهي بمحمد عمارة (في الاعمال الكاملة) وعلي شلش (في سلسلة الاعمال المجهولة) .. وغيرها. ويذكر هذا الأخير من جهود المستشرقين في هذا الجانب أن أهم عمل إحصائي بليوغرافي للسيد جمال الدين قام به المستشرق الأمريكي الجنسية الايراني الاصل: عبد الله قدسي زادة، ذكر له: تراث السيد جمال الدين الأفغاني في مصر. دكتوراة بالانجليزية بجامعة انديانا الامريكية - ١٩٦٨ مخطوط (٢٣٢ص).

- بليوغرافيا مفسرة بالانجليزية. ليدن هولندا. ١٩٧٠ (١١٨ص) .. وانظر الكتابات الاجنبية. حوله كذلك في (علي شلش: جمال الدين الأفغاني بين دارسيه، دار الشروق ط ١ / ١٤٠٧ - ١٩٨٧).

ولهذا رأينا تقسيم هذه الورقة إلى مجالين كبيرين يحددان حركة الرجل وعطاءه في هذا الجانب، المجال السياسي الحركي والمجال الديني والثقافي العلمي، وتحت كل منهما عناصر فرعية.

١- المجال السياسي الحركي

أ- منهجه في توضيح محاسن الغرب ومزاياه، ومساوئ ومزايا الغرب الاستعماري:

لا يتردد الأفغاني في إنصاف الغرب فيما يتميز به من نظم وخصال متى تبين له ذلك، ولم يمنعه عداؤه الشديد للوجه الاستعماري لهذا الغرب من ذلك. بل نجده أحياناً يخلط المدح بالقدح في صعيد واحد. لقد تعلم الأفغاني اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ودرس العلوم الأوروبية الحديثة بالهند. وجال في كثير من البلاد الأوروبية مما سمح له بالرؤية المباشرة والمخالطة الحية لأهل تلك الديار، ومما جعله أيضاً يستطيع أن يحدد بدقة طبيعة هذه الحضارة وأسسها ومبادئها وجوانبها الإيجابية والسلبية معاً. لقد «وقف من هذه الحضارة وقفة إسلامية صحيحة دون تعصب وانغلاق ودون رفض تام لها أو قبول كامل لمبادئها»^(١).

وإذا كان الإنجليز هم الذين كانوا يتصدرون الحملة الاستعمارية في البلاد الشرقية ويتزعمون «عمليات السلب والنهب والاحتلال والاحتلال، فإن الأفغاني قد شن ضد حكومتهم واستعمارهم أوسع حملة من حملات الكراهية والدعاية والإثارة التي حدثت في ذلك التاريخ. ولقد بلغت كلماته فيهم من الحسم والإطلاق والتعميم حداً جعل منها حكماً وأمثلاً تأخذ بمجامع القلوب فضلاً عن تحريكها الهمم وسهولة جريانها على كل لسان. فهو الذي يقطع بأنه «لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضرر»، وبالرغم من كل هذا فإنه لم يخلط عداءه «للاستعمار» الإنجليزي بالتعصب ضد «الأمة الإنجليزية»، بل لقد رأى فيها أنها من أرقى الأمم،

(١) محسن عبد الحميد: جمال الدين الأفغاني، المصلح المفترى عليه... ص: (٥٣).

تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الانجليز أنفسهم، وتنصف المظلوم إذا كان من الانجليز . . . والإنسان في عرفهم هو الانجليزي، وهو يسوق هذا بصدد تأكيد أن عداءه ليس إلا فيما يتعلق بسوء أعمالهم . . . واستعمارهم وتدخلهم في الممالك الشرقية . . . كالهند ومصر . . . وسومهم أهلها سوء التصرف ومنتهى العسف والجور . . .»^(١).

ويذكر الأفغاني للإنجليزي والعربي أو الشرقي أوصافاً متمايزه، موضحاً فلسفة «الحجر الاستعماري» على أهل الشرق فيقول مبتدئاً بوصف الإنجليزي: «هو قليل الذكاء، عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنود، صبور، متكبر، والعربي أو الشرقي كثير الذكاء، عديم الثبات، قنوع جزوع قليل الصبر، متواضع .

يثبت الانجليزي حتماً على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره، والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه، فيفوز الأول في خير النتائج بفضيلة «الثبات» ويخسر الثاني كل حق برذيلة (التلون وعدم الصبر). ولذلك فأكثر ما ورد في القرآن - ذكر الصبر ولزومه مثل قوله تعالى ﴿اصبروا وصابروا﴾، ﴿والذين صبروا﴾، ﴿ولو أنهم صبروا﴾، ﴿وبشر الصابرين﴾ . . الخ. كل هذا يدل صراحة على أن الأمة العربية خصوصاً والمسلمين عموماً أحوج إلى الصبر والثبات (على) كل ما في الأخلاق المؤدية للسعادة البشرية فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب من علم، ويرضون به إذا كان الموعد قريباً . . . ولا يصبرون على الوعد الصادق إذا كان أمده بعيداً، فيخسرون في الحالين ولا يستثمرون غير الفشل»^(٢). يركز الأفغاني هنا على قيم وفضائل يفتقدها العربي والشرقي ويمتلكها الغربي، وعلى قيم وفضائل أخرى هي بحوزة العربي والشرقي لكنه لا يحسن استعمالها ولا استثمارها، ومثل هذا عنده «مثل رجل مثير ترك من

(١) محمد عمارة : جمال الدين الأفغاني موقف الشرق .

(٢) محمد باشا الخنزومي : خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني . دار الحقيقة بيروت ط ٢ / ١٩٨٠ ص : (١٢٣-١٣٣) .

الأموال والأموال ما هو معلوم بعضه ومجهول أكثره، وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير»^(١).

وإذا قضت الشريعة «بوضع الحجر على الوارث السفه المبذر واعتبرته قاصراً غير مختار ولا حر للتصرف بملك ومتروقات مورثه»، فإن الشرقيين «بما ترك لهم من الميراث تحت حكم المبذرين والمسرفين والسفهاء... قضى على الشرق وأهله «تداول الأيام» أن يكون الحاكم وواضع الحجر عليهم هو الغرب...». لكن مع فرق ظاهر «بين وضع الحجر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعي، وبين حكم الغرب بوضع حجره على الشرق وأهله... (ف) الحجر الشرعي يمكن رفعه بإثبات صلاح سيرة الوارث وتبين حقه بإرجاع حربة تصرفه بمال مورثه.

أما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد ولا تعمل فيه عوامل قولية وحجج منطقية ليرفع حجره. والسبب أن الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير ولا إصلاح سيرة المسرف المبذر لترجع إليه حقوقه، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيه وإسرافه لكي يطول عهد الحجر، ومع تمادي الزمن أن يتم بعد الاستعمار التملك والاستعباد»^(٢). ولا يكتفي الأفغاني بهذا القدر من توضيح فلسفة الحجر الاستعماري، بل يرصد في تتبع ما تقوم عليه من خطوات فيحدد منهجية الغرب في العمل «للوصول إلى الاستيلاء الممتع» من خلال:

- إقصاء كل وطني يمكنه الجهر بمطالب وطنية.
- تقريب الأسقط همة والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق.
- الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعاً، فتؤثر طائفة على الأخرى... حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم.

إن معيار التقويم بين المحاسن والمساوي عند الأفغاني يقوم على أساس سنني تجريدي، فجنده يجرد الخصال والفضائل التي من شأنها أن ترفع الشعوب وتحقق

(١) نفسه، ص (١٣٣).

(٢) نفسه، ص (١٣٣ - ١٢٤).

ثمّوها وازدهارها، كما يجرد الخصال والردائل التي من شأنها أن تضع الشعوب وتؤدي بها إلى الهاوية والحضيض . لا يهمه في ذلك كله بأية ملة اقترنت تلك الخصال ، فضيلة العدل ومثلها الصدق والثبات والكرامة . . . محمودة دائماً ، مطلوبة دائماً ، محققة أغراضها بغض النظر عن من تعلق بها . ومثل ذلك معكوساً في ردائل الظلم والهوان والركون إلى الدنيا والصغائر . . . وهذا واضح لا في السنن الدينية الشرعية ولا في السنن الكونية القدريّة من حيث ترتيب نتائجها في تحقيق النصر للعادل ولو كان كافراً والهزيمة للظالم ولو كان مؤمناً ، كما نص على ذلك كثير من العلماء .

يضيف الأفغاني فيما يسميه «حزماً وعزماً» لأبناء الأم الغريبة ، أنهم «إذا عمدوا إلى قصد لا يفتقرون في طلبه ، وعلو الهمم فيهم يجعل لديهم كل صعب سهلاً وكل بعيد قريباً ، يقتحمون المخاطر لا كتساب الشرف ، ويتجشمون المصاعب للوصول إليه ، وبلغوا من محبة المجد حداً لا يروونه غداً لأرواحهم فقط بل عدوه من مادة النماء لأبدانهم فهم يفرقون خوفاً إذا عرض وهم لفواته ، خشية من هلاكهم وذهاب حياتهم . لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافي أفريقيا ويتنسم جبال سيبيريا ويخالط قبائل وشعوباً لا يعرف لهم لغة ولا يألف لهم عادة ولا أخلاقاً ، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش ، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم ، وهو في كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم ، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل ، كل هذا يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته أو ابتغاء مجد يحصله لأمته»^(١) . ويذكر عن أصل وحدتهم على كثرة الخلاف والنزاع بينهم أن «بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر وإعلان السيادة فيها واستلام أزمة أحكامها . وآخرون يقولون هذا مما يخالف أحكام الزمن ولا تسوغه شريعة الوفاء ، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمنياً يكفي لقضاء ما نريده فيها . ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتم البقاء .

(١) جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده : العروة الوثقى ، دار الكتاب العربي - بيروت . طم / ١٤٠٠ - ١٩٨٠

عبارات مختلفة معان متشابهة يتنازعون وهم متوافقون ويتخالفون وهم متحدون...»^(١).

وعلى كل فإنه بخصوص الموقف الصحيح في مواجهة الحضارة الغربية، يذهب الأفغاني إلى أن ذلك يكون على أساسين:

- «انطلاق الأمة من قاعدة سليمة توجه ثقافتها وفكرها، وهي الرجوع إلى قواعد الإسلام الحنيف والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نار الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة...»

- أخذ ما تحتاج إليه الأمة من أحسن ما عند الأمم من العلم والصناعة والاستفادة من الأمم الحضارية الراقية في التخطيط الحضاري الجيد ونبد كل ما كان مألوفاً في الغرب الذي لا يوافق طباع المسلمين ويصطدم مع أصول دينهم وحضارتهم. و(غالباً ما) يضرب المثل بالأمة اليابانية التي واجهت الحضارة الغربية وقلدتها تقليداً نافعاً، وجلبت المفيد اللازم من العلوم الصنائع، وبقيت مع ذلك أمة يابانية متميزة لم تفقد عقيدتها الوثنية ولم تضع بأعرافها وأوضاعها الخاصة من أجل ذلك التقليد...»^(٢).

ب- تحرّكه من الخندق العربي والإسلامي ومراهنته على التعبئة الشعبية والرسمية لمواجهة الغرب الاستعماري

تعتبر شخصية جمال الدين شخصية حركية من الطراز الأول، لا يعرف استقراراً ولا موطناً قاراً، وهذا ديدن كل من يحمل همّ الأمة ويكرس جهده لخدمتها والعمل في سبيل النهوض بها، ويجعل كل مكان تطأه قدماء جبهة وخندقاً للجهاد. سواء أكانت حركته هذه إرادية أم قهرية بالنفي والإبعاد، وقد

(١) نفسه، ص: (٧٧).

(٢) محسن عبد الحميد: الأفغاني المصلح المفترى عليه، ص: ٥٨-٥٩. وانظر له في فضح السياسة الإنجليزية في الهند بكشف وعودها الكاذبة وأيديها البيضاء الناعمة المزيفة، الغزومي، خاطرات ص (٢٥٠-٢٥٨) - والعروة الوثقى، ص (١٧٨ - ٢٧٦). وفي مجال الانصاف ما كتبه حول المستر بلونت (انجليزي حر ينصف المسلمين) - العروة ص ٣٧٥.

ورد عنه رحمه الله «كنت أول عهدي بالنفي أستصحب جبة ثانية وسراويل . ولكن لما توالى النفي صرت استثقل الجبة الثانية فأترك التي علي إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها»^(١). ونود أن نقف هنا على حركته من داخل الخندق العربي والإسلامي في خدمة قضايا الأمة تجاه الغرب الاستعماري . وقد كانت حركته من داخل هذا الخندق من أقوى تحركاته لما استطاع أن يستثمره ويوظفه من معطيات دينية وتاريخية وواقعية وإنسانية . . . للتعبئة ضد الاستعمار الغربي ، والإنجليز منه على وجه الخصوص الذي استطاع أن يمتد إلى الشام ومصر والهند وبلاد الأفغان وفارس . . . وغيرها . . . استخدم الأفغاني «سلاح الدين وقوة الإيمان في المعركة ضد الاستعمار . . . حتى إن مفهوم «الخيانة» عنده يتمثل في التخلي عن الموقف «الحازم» ضد الاستعمار . يقول «لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس «وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس» . بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها . . .»^(٢).

وهذه نصوص مختارة للأفغاني ، قارعة للأذهان المعطلة موبخة للنفوس الجامدة ، ما تزال حية نابضة يحس المرء حرارتها ووقعها ، إذ تصدق عليه اليوم كما صدقت على سلفه القريب .

يقول مخاطباً الأمة من خلال المصريين في حربهم ضد الإنجليز «ألا أيها النائمون تيقظوا ، ألا أيها الغافلون تنبهوا ، يا أهل الشرف والناموس ، يا أرباب المروءة والنخوة ، يا أولي الغيرة الدينية والحمية الإسلامية ، ارفعوا رؤوسكم تروا بلاء منصباً على أوطانكم وما أنتم ببعيد منه ولا معزل عنه . إن لم يكن

(١) الخزومي : خاطرات ، ص (٥٠) .

(٢) محمد عمارة : آفغاناني موقظ الشرق ، ص ١٠٨ ، وانظر له أيضاً ، جمال الدين الأفغاني . الأعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق ، ط القاهرة الأولى ١٩٦٨ . ص (٥٠٣) . وقد تعتمد أحياناً ط ١ للمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ ، في جزئين .

أصابكم اليوم فسيصيبكم غداً، تساهلتم في الذود عن حقوقكم المقدسة ولهوتم عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة والتذليل وسوم الخسف، وتعللتم بالأوهام، فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. أصبحتم على شفا جرف المذلة، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم العبودية.

ألا إن وقت التدارك مافات، فالأرواح في الأجساد، والعقول في الرؤوس، والهمم في النفوس، وأقدام العدو في زلل، وشؤونه في خلل، فاثبتوا ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين^(١).

يقول أيضاً محرضاً ومحفزاً: «أنرضى ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعتنا ولا يرفب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته»^(٢). «يا أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو إليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارة وقضاء، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحق بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة (. . .) ماذا ترجون من مطاولته؟ وماذا تؤملون في إرخاء العنان له؟ وماذا تهابون في معارضته والأخذ على يده؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل فقد رأيتم أنه أفسد شؤونكم وأقلق راحتكم . . . وأفقر آلافاً مؤلفة من العائلات . . . وأضر بمنافعكم العامة (. . .) وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها»^(٣).

(١) الأفغاني، عبده: العروة الوثقى، ص (٤٣٣).

(٢) محمد عمارة: الأفغاني موقف الشرق، ص (١٠٣) - الأعمال الكاملة، ص: (٤٥٧).

(٣) الأفغاني، عبده: العروة الوثقى، ص: (١٨٩).

وقد تشتد لهجة الأفغاني أحياناً وتحد في تقريب النائمين الخاملين لما يراه من عسف وجور الاستعمار فيهم، كما هو حال الهند (هندوساً ومسلمين) مع الإنجليز، يقول مخاطباً إياهم: «يا أهل الهند وعزة الحق وسر العدل، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين «ذباباً» مع حاميتكم البريطانيين (. . .) وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف (. . .) لكان طنينكم يصم أذان بريطانيا العظمى، ويجعل في أذان كبيرهم المستر (غلاستون) وقرا. ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتمم بجزيرة بريطانيا العظمى، لجررتموها وعدتم إلى هندكم أحراراً. (فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع، فقال إذ ذاك بصوت عال: إعلموا أن البكاء للنساء، والسلطان محمد الغزنوي ما أتى إلى الهند باكياً، بل أتى شاكياً للسلاح، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم»^(١).

وبنفس الحدة تقرأ له أيضاً (عن بعض الأعاضم من ذوي الحل والعقد في المسلمين): «ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه، ملعون من يبيع أهل ملته بحطم يلتذ به، ملعون من يمكن الأجانب من دياره، محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم ويصغر العظيم، ملعون من يختلج في صدره أن يلحق عاراً بأمته لتهم ناقصاً من لذته. عجباً عجباً، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكن الأجانب من مصر وهي مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية، هيهات هيهات. . .»^(٢).

لم يكتف الأفغاني بالضرب على الأوتار الحساسة لدى الفئات الشعبية فقط، بل تعدى نصحه وتحفيزه إلى الحكام والمسؤولين أنفسهم منبهاً لهم إلى مكاييد الاستعمار ومخططاته، ومشجعاً كل بادرة رفض أو مقاومة فيهم، وإن كان حظه

(١) الخزومي، خاطرات، ص (٢٤).

(٢) الأفغاني، عبده: العروة الوثقى، ص (٣٩٧).

هنا قليلاً في الاستجابة لكثرة الوشاة والحساد ولتخوفات الساسة وعدم اطمئنانهم وارتياحهم أمام أنفاسه الثائرة والغاضبة .

نقرأ له في هذا المعنى ما يذكره عن مبايعته للسلطان عبد الحميد، قوله : «أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا، وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شرك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير إزدارادها واحدة بعد الأخرى إلا بيقظة وانتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم»^(١).

وإذا ما تجاوزنا هذا الخطاب الشامل لعموم الأمة الهادف إلى الإيقاظ والتنبيه ورفع المعنويات، فإننا على صعيد آخر، في نفس الإطار أو الخندق، نجد يحدد قطاعات معينة يحوطها بسياج وقائي من المقترحات والتنبيهات لكونها مستهدفة بدرجة أولى من الاستعمار الغربي، وهو ضرب من التحصين الثقافي لعل الأمة أحوج ما تكون إليه الآن من ذي قبل .

نجد في الجانب السياسي يركز على عنصر الوحدة والاتفاق وتقدير المسؤولية فيطالب بنفس التوتر والحدة: «أروني مملكة أو أمة انغمس ملوكها أو أمراؤها بالسفاهة والسرف وعم الجهل طبقات الشعب، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا . . للذل والهوان . لم تسقط تلك الملوك والأمراء عن عروشها، ولم يستعبدوها الاستعمار ويحل فيها الدمار!!، وهاتوا مملكة أو قارة اتفقت كلمة أهلها، وأنفت من الذل ورفضت الاستعباد، واستلت السيف وطاب لها الحتف، ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتداراً . هل من حاجة للإتيان بالأدلة وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول وظفرت بحاجتها ونالت حريتها واستقلالها؟»^(٢).

(١) الخزومي: خاطرات، ص (٥٤-٥٥). وقد كان الأفغاني مؤيداً أيضاً لكل الحركات الثورية والتحررية الكالرايية والمهدية وغيرها .

(٢) محمد عمارة: الأفغاني، الأعمال الكاملة، ج ٣، ص (٧٣-٧٤).

وذكر من عوامل الانهيار في هذا الجانب، حيث كان «عدد المسلمين في دور انحطاط دولهم أكثر من يوم مجدهم وإبان عزهم»، «إهمال ما كان سبباً في النهوض والمجد وعز الملك، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته. نعم لما فشى الجهل في الخلفاء وبعثوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته وهن وضعف أساس الملك (...). وقد زاد في ضعف الخلفاء بلية الإكثار من الأغراب وجعلهم قوة استعاضوا بها عن قوة عصبيتهم وجنسهم. فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى مراتب القواد، وترأسوا الدواوين واستبدوا بالقرى والسواد، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى، فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقوة الجنس، ولا يكون مع هذا إلا الانحطاط»^(١).

ونجده في الجانب الفكري والثقافي يركز على الأبعاد التربوية والتعليمية لحماية الأجيال والعمران والآداب... ناقداً مظاهر الاستلاب والاغتراب... معتبراً «المقلدين من كل أمة، المتحلين أطوار غيرها... منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، تكون مداركهم مهابط الوسوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما افعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤماً على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهيئون بجميع أعمالهم، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبل ويفتحون لهم الأبواب ثم يثبتون أقدامهم...»^(٢).

ويقول واصفاً وناقداً جملة من مظاهر وأسباب الاستلاب والاغتراب والارتهان للآخر: «شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنا» وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني!.. هل انتفع المصريون

(١) المخزومي: خاطرات. ص: ٢٣٩.

(٢) نفسه، ص: ٣٠٨ - وأيضاً العروة. ص (٥٨).

والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الجليل الجديد؟

هل استنفذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة، هل نجوا بها من ورطات ما يلجؤهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الأعداء عليهم؟ . . « سيل من الأسئلة المخرجة يطرحة الأفغاني ولا يبتغي له جواباً لأنه ناطق بنفسه ومجسد بذاته في واقع وحال الأمة . بل إن الأفغاني يستدرك متعقبا بعض المظاهر السلبية لهذا التقليد، حيث «وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية، والوطنية، والجنسية، وما شاكلها، ويصوغونها في عبارات، متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها، وسموا أنفسهم زعماء الحرية.

ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمسكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والأنية وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم . . .»^(١).

لا يقتصر الأفغاني في منهج الزجر والتقريع والتأنيب للذات على تفريطها فقط في كثير من خصالها ومقوماتها الدينية والتاريخية مما جعلها عرضة للأطماع الخارجية . . بل طال منهجه ذاك أيضاً تفريطها في ما كان خاضعاً لحضارتها وسلطانها من أم وشعوب مفتوحة استرجعها الغرب بسهولة، وإذ لم تعمل الخلافات المتعاقبة على شد تلك البلاد إليها، وربطها بها بروابط الدين بتعميق ثقافته وتسويد لسانه وتعميم آدابه وأخلاقه، ويرز هنا مرة أخرى العامل التربوي

(١) نفسه، ص (٣٠٧-٣٠٨)، وأيضاً العروة ص: ٥٨ . وانظر تعليقات مفيدة على هذا النص في محمد عمارة: أزمة الثقافة العربية الإسلامية (نقد الأفغاني للتحديث على النمط الغربي)، مجلة الاجتهاد، ع (١٠-١١) - ص ٢ / ١٤١١ - ١٩٩١، ص: ٦٤-٦٥ . محسن عبد الحميد: الأفغاني المصلح - ص: ٥٧ وما بعدها.

التعليمي . . التكويني والثقافي في فلسفة التغيير جملة عند الأفغاني . العامل الذي قلل من شأنه عنده كثير من دراسيه ولم يروا فيه إلا الثوري والسياسي المنافع . ولنستمع إليه معاتباً السلطنة العثمانية على تفريطها في فتوحاتها، محدداً بذلك رؤية استراتيجية عميقة في الموضوع، يقول: «هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى؟ وماذا أعدت من الخزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والإمارات في حوزتها؟ وإذا كان الجواب لا شيء، حينئذ يضطرننا الإنصاف إلى أن نقول: إن الدولة العثمانية في فتوحاتها وما شاهدناه من تفريطها لم تكن لتحسن الاستعمار، بل بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيّتها وعلومها وصنائعها، ولكل أمة ومملكة جامعات ومميزات من دين وتاريخ ولسان وعادات وأخلاق، فلو أخذت الدولة بالخزم بعد الفتح، وعملت بصائب الفكر والرأي، لعلمت أن بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعتمد إلى وسائل تعميم لسانها بإحداث دور علم وغيرها، حتى إذا استطاعت وتسنى لها في ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها، كان لها إحدى العوامل الكبرى للبقاء ولعدم سرعة الانفصال والتفكك^(١)، كما تفعل اليوم دول الاستعمار ببيت البشرين من الانجلييين والرهبان وبتشبيدهم «دور العلم» فإذا انتشرت الدعوة الدينية وقبلتها الأمة المستعمرة، اشتركوا بجامعة ثانية، وهما اللسان والدين، فكان الارتباط أشد وأوثق.

وهكذا إذا فازت على أربعة أجيال أن تعمم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب، اشتدت عرى الاتحاد وانتفى التغيير وأسباب النفرة، أما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا، ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعى

(١) قارن هذا بالصراع اأخذتم اليوم بين اللغات الأجنبية في «مستعمراتها» وخاصة الإنجليزية والفرنسية، وبين لغات البلدان الغربية ذاتها في محاولات لبسط الهيمنة والنفوذ.

إليه . كان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم أمراً محتملاً وقوعه لا مردّ له . . .»^(١) .

إن كفاح السيد جمال الدين للاستعمار الغربي كمسلم ناقد أو كداعية سياسي التزم في دعوته السياسية مبادئ القرآن والسنة الصحيحة يقوم على منهج يقترحه ليجعل من المسلمين قوة متماسكة سائرة في الحياة حريصة على أن تكون سيادة نفسها . . يتلخص في هذه الجملة « . . أرجو أن يكون سلطان جميعهم - المسلمين - القرآن ووجهة وحدتهم الدين » ، «إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من جهده فهو محمود ، ومن أصيب من مقتته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكموه في أحوالكم وطبائعكم وما الله بغافل عما تعملون » ، «إن حركتنا الدينية (بالدعوة إلى القرآن) كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها ، مثل حملهم نصوص «القضاء» و«القدر» على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو التخلص من ذل!! ومثل فهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه ، مما يثبطهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح .

فلا بد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى . ولا بد من تهذيب علومنا ، وتنقيح مكتبتنا ووضع مصنفات فيها قريية سهلة الفهم ، فنستعين بتلك الكتب والعلوم التي تضمنتها على الوصول إلى الرقي والنجاح»^(٢) .

هذه بعض أبرز وأهم معالم منهجية الأفغاني في تحصين الذات من الاختراق الثقافي والاستلاب والارتهان للآخر . وهي أسوار منيعة فعلاً تحيط بخندق أو جبهة الذات إذا ما أحسن توظيفها والإفادة منها . ولا يتوقف الأفغاني عند هذا

(١) الخزومي : خاطرات . ص : ٢١٥-٢١٦ .

(٢) محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، دار الفكر - بيروت ط ٦ / ١٩٧٣ - ص : ٩٨-١٠٣ .

الحد ولا يكتفي بهذا القدر بل يعن في فضح وكشف السياسات الاستعمارية ويعمم ذلك على الجميع ولا يكاد يترك فرصة سانحة دون أن يذكر بشيء من ذلك ، ويعتبره من مقومات الاستعداد الذاتي للأمة .

ونضيف إلى ماتقدم بخصوص فضحه للسياسة الإنجليزية، قوله : «الحكومة الانجليزية عدوة المسلمين عداً شديداً لالتهامها الممالك الإسلامية، تغد المسير إلى أراضيها، سالكة جاداتها المعهودة من اللين والمواربة والخديعة والمخاتلة، فإن بلغ بها السعي حداً من الغرض فذلك وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لانتزاع قطعة من أيدي المسلمين بأية وسيلة وتسليمها لقوم من سواهم أيا كانوا، كأن لها لذة في نكاية أهل الدين وكأنها تبتغي السعادة في تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم، وكمال بهجتها في أن تراهم أذلاء عبيد لا يملكون من أمرهم شيئاً...»^(١).

ويذكر نموذجاً من رجال الحكومة الإنجليزية، من أدقهم «في فن الحيلة، وأمهرهم في صناعة الخدعة وأطولهم باعاً في النفاق، وأحذقهم في اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها، وأشهرهم في عداوة المسلمين، ذلك اللورد المحترم «نورت بروك» كان هذا الرجل البارع حاكماً في الهند فأذاق أهاليه مر العذاب في كؤوس المحبة والوداد. كم ضرب بيوتاً وقلب عروشاً، وكم رفع وضيعاً وأذل عزيزاً، وهو في جميع سيئاته يبكي ببكاء الشفقة ويسكب دموع الرحمة على الهنود ويقول أنا أول انجليزي تهمة رفاة أهل الهند، وإنني وحيد بين الانجليز بمحبة الهنود والسعي فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح. وإنني أستغفر الله إن كنت قصرت في عمل يؤمل بهم إلى الفلاح...!!»^(٢).

هذا بالرغم من كون «الانجليز قد جروا في الهند على قاعدة «فرق تسد»، وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنيين بعضهم عن بعض، وغرست في

(١) الأفغاني . عبده : العروة، ص : ٣٦٩ .

(٢) نفسه، ص : ٤٠٤-٤٠٥ وأيضاً ص ٣٣٣ و ص : ٣٣٤ - وانظر علي شلش : جمال الدين الأفغاني (سلسلة الاعمال المجهولة) - في : فضحه لـ «السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية» ص : ٨٣ وما بعدها .

العنصرين بذور البغضاء بالميل تارة إلى جانب المسلمين وتارة إلى الآخرين ، وكان إيثارها للوثنيين ، أظهروا اعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضاً أقوى ، إذ ليس فيهم من البأس والنجدة ما في المسلمين ، ولا ضاع لهم من العزة والسلطان ما ضاع للمسلمين . . .»^(١) .

وقاعدة «فرق تسد» أو عنصر التجزئة الذي نوهنا عليه سابقاً هو الرئيس للكيان الغربي إلى الأمة ولا شك في أن وحدة هذه الأمة وتماسك صفها أمضى سلاح لها للدفاع عن نفسها واسترجاع سيادتها وكرامتها . يتحدث الأفغاني عن هذا المفهوم في علاقة الانجليز بالهند مرة أخرى ، فيقول بأن «الذي تخشاه (بريطانيا) وتفرق منه ، قيام الأمة بوجهها وهذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريطانيا وميلها ، وهذا الذي رأيناه يخلص البلاد وينجي العباد من نير الانجليز ، وقد سبق فذكرنا دخولها لبلاد الأفغان بستين ألفاً من الجنود المنظمة ، وكيف أنها توغلت في البلاد واستولت على المعاقل والحصون ، لكن لما هبّ الأفغانيون من كل صوب وناحية وصدوها باسم أمة الأفغان لا بأسم أمير أو سلطان ، اضطرت لترك البلاد وولت الأدبار بعد أن صرفت ثلاثين مليوناً من الجنيهاً فضلاً عن دماء رجالها ونخبة قوادها»^(٢) .

ج- تحرك من الخندق الغربي لخدمة قضايا الأمة ومشكلاتها .

قد يكون التحرك من الخندق العربي والإسلامي أمراً مقبولاً ومستساغاً في حق رجل شعر بهضم حقوق أمته ودوس كرامتها وإذلال أبنائها . . فانبرى مجاهداً منا فحا من أجل استرجاع عزتها ومجدها ، لكن التحرك من الخندق الغربي لنفس الأهداف والغايات وانطلاقاً من نفس الدوافع والمحفزات ، قد يبدو في نظر الكثيرين أمراً غير مستقيم ، ذلك لأن هذا الخندق الغربي هو ذاك «الآخر» الذي يناضل ضده الأفغاني ويجاهد هو ذاته المتسلط وهاضم الحقوق . . ومن هنا

(١) المخزومي: خاطرات . ص (٢٦٧) .

(٢) نفسه ، ص (٢٦٦) .

حاتم كثير من الشبهات حول الأفغاني لا نرى في التعرض لها هنا كبير فائدة وقد رصدت لها كتابات كثيرة. ولعل التعرض إلى بعض النماذج من محاورات الرجل ومجادلاته على أرضية هذه الجبهة يغني -موضوعياً- عن كثير من الظنون ويقطع بنبل قصده وشرف ما انتدب نفسه له. وإن كان هذا بدوره لا ينفي عن الرجل أخطاء في التقدير قد يجترحها هنا أو هناك.

إذا كان الخصم العنيد للأفغاني هو الاستعمار الإنجليزي، فإن هذا لم يمنعه من ربط علاقات مع شخصيات الإنجليزية مسؤولة وغير مسؤولة، وهذا أمر منسجم مع فلسفته ومنهجه في الحوار والتعامل مع الآخر كما تقدم في معرض حديثه عن المحاسن والمساوئ.

وسنختار له ثلاثة مواقع مهمة في تحركه من هذا الخندق، إنجلترا وروسيا وفرنسا^(١) بخصوص الموقع الأول -وإن كانت علاقته سابقة مع الإنجليزية فيما يكتب وينشر ويقول عنهم- فإن ذلك تقوى أكثر مع ظهور حركة المهدي السوداني (محمد أحمد) وانتشارها في ربوع السودان وتهديدها المصالح الإنجليزي في مصر ذاتها. . . وقد تلقى الأفغاني مراسلات من زوجة بلنت الإنجليزية في محاولة من الإنجليز الاستعانة به في حل مشكلة السودان وثورة المهدي، وإجراء مفاوضات للصلح مع المهدي ورجاله. . «إخطر إذن اللورد «ساليبوري» و«شرشل» أن يستدعيا جمال الدين. . (بوساطة اللورد بلنت)، ليسألاه رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك، فشرح إلى لندن واجتمع بهما وهناك أفاض بتوضيح الغوامض وأطلعهما على مواقع الخطأ في سياسة إنجلترا خصوصاً في الشرق وما تتبعه في مصر، كل ذلك بحجج قاطعة ولهجة شديدة ملؤها الاخلاص. . .»، ثم بدأت المساومة لها تقدم إليه اللورد ساليبوري بقوله: «إن بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره، ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة

(١) لم نراع هنا الاعتبار التاريخي أو التوقيت الزمني لحركة الأفغاني في البلد أو ذاك من البلاد الغربية إذ المهم مراقبه وخلاصة منهجه في التعامل.

وولاء قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال ، لذلك تصورنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه . . » وهو إغراء بمنصب كبير يتهافت عليه ذووا المطامع والمطامح الدنية والإرادات المشلولة ، لكنه أمام قمة شامخة جردت نفسها لعزائم الأمور . . لم يجد له صدى ولا أدنى تأثيره ولهذا رد الحكيم الثائر في هدوء مسفها مقترح القوم «تكليف غريب ، وسفه في السياسة ما بعده ، اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك : هل تملكون السودان حتى تبعثوا إليه بسلطان؟ . . مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق ، الخليفة الأعظم جلالة السلطان حي يرزق ، ولديه من الجيش الهادي والمعنوي ما يتدلل معهما كل صعب وفتنة في الكون الإسلامي وأجزاء ممالكه (. . .) . فبهت عند ذلك اللورد ساليسبوري بهتة ، وفوجئ بصدمة لم تكن في حسبان ، ولم يخرجوا ، إذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان أثاره بدون تعب ، ومنصب انتصب له بلا نصب . . فقال للسيد كلمات معناها سننظر في الأمر ، وودعه بقوله «مصحوب بالسلامة»^(١) .

كان للسيد جمال الدين موقف آخر في بلاد الانجليز حيث أقام فيها مدة ثمانية أشهر سنة ١٨٩٣ «موجهاً كل همته إلى محاربة الشاه نصار الدين بقلمه ولسانه داعياً إلى تخليص الشعب الفارسي من ظلم الحكم الاستبدادي ، وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية «ضياء الخافقين» التي كانت تصدر بالعربية والإنجليزية ، وكان من أكثر العاملين فيها نشاطاً»^(٢) . وكان مدته هذه في الانجليز «في حجاج ولجاج مع كبار رجالها . . في أحوال مملكة الفرس وسوء تصرف

(١) الخزومي : خاطرات . ص (٤٢-٤٣) . وانظر ايضاً : شلش : الأفغاني بين دارسيه ، ص (٥٥-٥٦) ، فتحي الرملي : البركان الثائر ، ج . د . الأفغاني ، دار الثقافة العامة ، ط ١ ، ١٩٦٦ . ص (١١٠) . مصطفى عبد الرازق : (ترجمة الأفغاني) في العروة الوثقى ، ص (٢٧) .

(٢) مصطفى عبد الرازق (ترجمة الأفغاني) ، العروة . ص (٢٧) .

الشاه ناصر الدين وإنذار الإنجليز بسوء عقبي إمدادهم الشاه وإعانتة على عسفه في المملكة الأرسيتة . . »^(١) .

الموقع الثاني لحركة الأفغاني انطلاقاً من الغرب هو روسيا القيصرية التي كانت على خلاف كبير مع بريطانيا في سياساتها الشرقية ، وهو ما جعل روسيا توسع للأفغاني لما رآته من شدة انتقاده وفضحه لمخططات ومغالطات الإنجليز «أولوه غاية الإجلال والتكريم والإصغاء لأحاديثه والانتصار لسياسته ، حتى إن القيصر دعاه لقصره وتحادث معه طويلاً وكان كثير الحفاوة به معظماً له مصغياً لما يقوله» . . وكان يحكم الأفغاني في حواراته هذه نفس المنطق والمنهج في النصيح والتقويم ، والتشبث بالمبادئ والأصول ورباطة الجأش ، والصراحة التي لما تميز بين رئيس ومرؤوس ، ولهذا لما سأل القيصر «عن سبب اختلافه مع الشاه ، فذكر له الأفغاني رأيه في الحكومة الشورية وضرورة اتباعها ، وأن الشاه ينفر من ذلك ولا يجب أن يقتربه . قال القيصر : إنني أرى الحق في جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يحكم به فلاحو مملكته (!؟) . فأجاب جمال الدين بجرأة

^(١) الخزومي : خاطرات . ص (٤٩) ويذهب علي شلش في تحديد منهجية تعامل الأفغاني مع الغرب أنه كان «قادراً على التعامل مع الجمهور الغربي بلغة مختلفة تماماً عن لغته في التعامل مع الجمهور الاسلامي العريض ، وذلك عن طريق الالتحاح على المبادئ الليبرالية والعقلانية أكثر من الالتحاح على المبادئ الدينية ، كالعادة ايضاً تجده يقلل من لهجته المعادية لبريطانيا حين يخاطب البريطانيين . ويضيف الكاتب متولاً قول الأفغاني : «إن إيران تنتظر كلمة من إنجلترا ، فإذا لم تأت هذه الكلمة فإن روسيا على استعداد للاستفادة من الجو الراهن الذي يعيش فيه الشعب الإيراني» على أنه «ترحيب بالتدخل البريطاني في إيران شريطة أن يكون ذلك عوناً للحرية والعدل بدلاً من التنديد بسلطة الشاه كما حدث من قبل» . (ج . د . الأفغاني بين دارسيه ، ص (١٧٦) - عن دراسة للباحثة نيكى كيدي حول مسيرة الأفغاني السياسية) . والواقع أن التأمل في سيرة الرجل لئن جاز له أن يقلل - ومن غير إطلاق - تغيير الأفغاني للهجة الحوار والتخاطب في بعض المواقف على حديثها في مواقف أخرى ، فما أظن انه يجوز له قبول دعوى التدخل البريطاني في إيران كاستعمار من طرف الأفغاني وهو في آخر سنواته بعد سجل حافل من الجهاد ضد الإنجليز بالذات .

وما أظن الامر يتعدى مجرد دعوة للمفاوضة السياسية والاخذ باليد مع ابقاء البلد على كامل استقلاله خاصة وأن روسيا لها بدورها مصالح هناك وكانت له معها ايضاً حوارات بخصوص حكم الشاه وسياسته في إيران .

وفصاحة : أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك ، إذا كان الملايين من الرعية أصدقاء له خيرا من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام . فعُلت عند ذلك وجه القصر علامة غضب فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قام من مجلسه وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، إذ كان وداعا باردا ، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه أن يسرعوا متلطفين بإخراجه من روسيا^(١) .

يذهب محمد عمارة إلى أن محاولات الأفغاني إقامة جبهات مع أعداء الانجليز جعلته «يحسن الظن بالقيصرية الروسية ويعرض عليها» «الشراكة» في استعمار الهند واقتسام هذا الاستعمار فيما بين روسيا ومسلمي الفرس والأفغان . يقول (أي الأفغاني) : «إن الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفي ضرورة للوقوف على أخلاقهم ، ومجاري ميلهم ، ومواقع أهوائهم ، ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك» «إلا إشراك الفارسيين والأفغانيين في أعمالهم الحربية والسلمية . ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة وإلا كانا سدا محكما دون أهم غاياتها»^(٢) . والواقع أننا هنا أمام نص قاطع في دلالة ، مختلف عما تقدم بخصوص «ترحيبه بالانجليز في إيران» وهو في حال ثبوته لا يمكن اعتباره إلا - كما ذهب دارسه محمد عماره - «كبوة» في سجل إصلاحه و«زلة» في نضاله .

الموقع الثالث لحركة الأفغاني في الغرب هو دولة فرنسا ، إذ كانت مدة إقامته بها ثلاث سنوات ونيف «محفوفة بالتجلة والإعظام من أكثر علمائها وفلاسفتها ، وقد أحلوه من مقام العلم والحكمة مكانا عليا»^(٣) . إلا «أن أكبر مظهر لنشاط

(١) الخزومي : خاطرات ص : ٤٦-٤٧ . وانظر العروة ، ص : ٣٥ - ترجمة مصطفى عبد الرازق للأفغاني .

(٢) محمد عمارة : ج . د . الأفغاني موقف الشرف ، ص (١١٠-١١١) .

(٣) الخزومي : خاطرات ، ص (٤٤) .

جمال الدين السياسي والأدبي في باريس كان في إنشاء «العروة الوثقى» وهي مجلة أسبوعية كان هو مدير سياستها والشيخ محمد عبده محررها، وكانت تتولى الإنفاق عليها جمعية اسمها . (جمعية العروة الوثقى) ذات فروع في الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الإسلامي، تعمل على إنهاء الدول الإسلامية من ضعفها وتبنيها للقيام على شؤونها، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية (. . .) وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا مالم يأخذ قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه وهي ذات أثر لكل ما جدد بعده من حركات الوطنية والحرية في بلاد الشرق^(١). كانت العروة بالمرصاد أيضا لكل ما ينشر من أغاليط وأكاذيب حول الإسلام والمسلمين ويستهدف ديارهم أو عقائدهم وأفكارهم، ولهذا كانت تتبع - في شخص رئيسها ومدير تحريرها - أمهات الصحف الغربية لترد عليها تصحيح ما فيها، وقد ترددت فيها أسماء صحف كثيرة مثل: (البال مال جازيت، التان، الماتان، استندارد، نوفيل بريس لير . إلخ). ولم يكتف الأفغاني بالتبع من بعيد بل كان يزاول الصحافة والإعلام في أعلى مستوياتها ويحرص على حضور جريدته الحي والمسؤول إلى مراكز الحوار واتخاذ القرار حيثما كانت .

يقول في إحدى هذه المناسبات : «رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة: العروة .) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير للثنا، ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانجليز، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسي التي ما مرت قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التي لا يدرك منتهاها . . .»، وكان مما سمعه محمد عبده من الانجليز: «ألا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا . . .»، وكان من

(١) مصطفى عبد الرازق: ترجمة الأفغاني - العروة . ص (٢٤) .

جوابه رحمه الله : «كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي . .»^(١) .

كانت هذه رسالة العروة الوثقى من فرنسا ، وهي كما يوضح مؤسسها أكثر . «قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجد لهم ، ولها سعي بل كل السعي لخشية آمال أعدائهم ، عملها سكب مياه النصيح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواها لالتهامهم ، ويرأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن طروق الناهب .

هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن ، فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره»^(٢) . فعلا لم يكن أمر حجب هذه الجريدة صادرا عن أهل الشرق ولا تم ذلك برغبتهم أو مشورتهم ، « وإنما خفت صوت العروة الوثقى بما أرصدته لها انجلترا من عنت وإرهاق» و«مصادرة في الهند ومصر حتى كانت توضع في غلاف لتصل إلى من يراد إيصالها إليه . . حتى أعلن في الجريدة الرسمية المصرية أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيها !! وقد نشر منها ثمانية عشر عددا صدر آخرها في ذي الحجة (١٣٠١هـ)»^(٣) . وبعد توقف العروة الوثقى «ترك الشيخ محمد عبده باريس عائدا إلى سوريا ، أما السيد جمال الدين فبقي في أوروبا متنقلا بين لندن وباريس يتصل بالعلماء والكتاب ورجالات السياسة وينشر فصوله ومقالاته في الجرائد الكبرى . .» وكان من تحركاته ما ذكرنا نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر .

(١) الأفغاني ، عبده : العروة الوثقى : ص (٣٩٩-٤٠٠) .

(٢) نفسه ، ص (٣٣١-٣٣٢) ، وأيضا المخزومي : خاطرات ، ص (٤٠-٤١) .

(٣) نفسه ، ص (٣٥) .

بقيت هنالك مسألة مهمة كنا سنعرض عندها جملة لأنها مما يروج له أصحاب الشبهات ، ولكن ارتأينا الرجوع إليها لكونها معبرة أيضا عن منهجه العام في مساندة ودعم كل من يناادي بالحق والحرية والعدل ورفع الظلم والجور . . مسألة تجمع بين الخندقين الخارجي والداخلي ، إذ العقل المفكر والمخطط لها هو عقل الآخر ، والذات المنقذة والمتلقية هي ذات الأنا ، على أرضها وبين أهلها يتعلق الأمر بالمحافل الماسونية العديدة والمختلفة كمحفل الماسونيين الأحرار (١٨٥٧) - محفل الشرق (١٨٧٧) - المحفل الايطالي (١٨٧٧) - المحفل الأكبر الانجليزي برئاسة الأمير حليم بن محمد علي والمنافس على عرش مصر (١٨٧٧) . . وقد «وجد الأفغاني في الماسونية وسيلة اتصال بالجماهير شأنها شأن الصحف ومنابر الخطابة ، فأقبل على الاتصال بها والتي كانت تحت سيطرة الأوربيين وقتها . .»^(١) ، «لكنه ما لبث أن خاصم هذه المحافل وأنشأ محفلاً خاصاً قبل إبعاده من مصر . . بل إنه عادى الماسونية بعد ذلك» . يوضح الأفغاني بدايات إدراكه لأكاذيب الماسونية وتضليلاتها بقوله «يؤلني أنني للآن ما عرفت لنفسني تعريفا يجعل لها صورة في الذهن ، أو وصفا ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة . أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار ، عنوان كبير خطير ، حرية ، مساواة ، إخاء . غرضه -منفعة الإنسان، سعي وراء دكّ صروح الظلم ، وتشيد معالم العدل المطلق- فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية وهو ، همة للعمل ، وعزة نفس وشدم ، واحتقار الحياة في سبيل مقاومة من ظلم .

(ثم قال): هذا مارضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ، ولكن مع الأسف أرى أن جرائم الأثرة ، والأنانية ، وحب الرياسة ، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعا لشر عن بعد سحق يعتوره تهديد ووعيد وغيره لك من الأمور التي ما تأسست الماسونية الحرة إلا للملاشاتها . .» . ورد على من قال :

(١) على شلش : ج . د . الأفغاني بين دراسيه ، ص (٢٤٦) . وانظر فيه طلبه الالتحاق بهذه المحافل .

«إن الماسونية لادخل لها في السياسة، وإننا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها»، بقوله: «كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ماكنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطواني المحافل الماسونية.

إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم، ولتشيد معالم حرية صحيحة، وإخاء ومساواة، وتذك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة . .»^(١).

لم يختلف موقف الأفغاني من المحافل والماسونية في ارتهانها للغرب والحكام، عن موقفه من الغرب جملة، من حيث رفض كل مظاهر الخمول والتبعية والظلم والاستعباد . . ودعوته إلى تحقيق معاني التحرر والأخوة والمساواة كقيم إنسانية عموماً، وإسلامية هي في حق الشرق المسلم أكد وأوجب.

المجال الديني والثقافي العلمي

لم يقتصر خطاب الأفغاني في تعامله مع الغرب على بيان محاسنه ومساوئه الاستعمارية، وعلى التعبئة والتحريض المباشرين . . بل إننا نجد في شيء من العمق يبحث وينقب عن مرجعيات دينية وثقافية متحكمة بسلوكات الغرب العدوانية تجاه أهل الإسلام خصوصاً، وبيان كيفية هذا التوجيه وتأثيره على أصحابه في عاداتهم وعباداتهم . ولهذا سنحاول في إيجاز أن ننظر معه إلى هذا المجال من زاويتين مهمتين، الزاوية الدينية والزاوية الثقافية العلمية.

(١) المغزومي: خاطرات .. ص (٣٢-٣٣).

أ) الأديان الثلاثة وجدلية الائتلاف والاختلاف في فكر الأفغاني .

إن الناظر إلى أقوال الأفغاني وتصريحاته حول الأديان لا يلبث يقف على ثلاثة مستويات منهجية في معالجته لها : - مستوى إثباتي لمبادئ الوحدة والانسجام والتكامل بين هذه الأديان . - مستوى الاختلاف والتنافر الذي تتحكم به غالباً موجّهات خارجية . - مستوى تأويلي لبعض مظاهر الغلو والانحراف . وقد يجهد الباحث نفسه لتلمس مخارج الأشياء وتأويلاتها قد لا يفهمها من تفسيرات الأفغاني لمظاهر الانحراف والتثليث في المسيحية وحملها على التصوف من حيث مشابهة بعض ما ورد في الأناجيل من إثبات الأبوة والبنوة . . لأقوال بعض أقطاب الصوفية . ولعل التساؤل المتوجه على هذا التأويل ، هو لماذا لا يعتبر الأفغاني الروايات المثبتة للتثليث والأبوة والبنوة . . وغيرها ، هي مما تم تحريفه من معالم المسيحية التوحيدية الحقّة ، وأنها باطلة أصلاً؟ ومعلوم أن الأناجيل الأربعة المتداولة قد انتخبت من عشرات الأناجيل في المجامع المسيحية وأقصي غيرها لأغراض تخدم التوجهات الفكرية والسياسية للدولة الرومانية منذ عهد قسطنطين . . هذا فضلاً عن مظاهر التحريف اللاحقة من أرباب الكنائس بما حازوا من سلطات وإمكانات . ثم إن النص القرآني واضح في كون أهل الكتاب قد صرفوا وبدلوا الكلم من مواضعه وألبسوا الحق بالباطل . . . وكذلك النص النبوي الصحيح على عدم تصديقهم أو تكذيبهم . . . وكل هذا دال على أن فيها صدقاً وكذباً ، والمعيار الحاكم هو هيمنة الدين الخاتم وتصديقه . وعلى كل لا تخرج تأويلات الأفغاني عن محاولات رد النصوص إلى الموقع الصحيح والسليم المنسجم مع وحدة الأديان ، كما أن طرحه لاستثمار عناصر الوحدة بين الأديان السماوية لبناء صرح إنساني منسجم متكامل حر ومسؤول ، هو طرح جدّ متقدم خاصة وقد أضاف إليه فضح التوجهات النفعيّة التوظيفية للدين في دوائر الاستعمار الغربي .

في تقريره لمبدأ الاتفاق والوحدة والانسجام بين الأديان يقول : «أخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل

تقيد ، مطلقاً للعقل سراحه . فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن الأديان الثلاثة ، الموسوية والعيسوية والمحمدية ، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية . وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية . وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا في الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس ، أو أنقصوا من جوهره ، أتاهم رسول بأرفاد وتأيد فأكمل لهم ما أنقصوه وأتم بذاته ما أهملوه . وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير ، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة»^(١) .

ويضيف موضحاً ومؤكداً هذه المبادئ والخلاصات : «لننظر إلى الأمر الرئيسي الذي جاء في التوراة من أمر العبادة وما أراده الله من عبادة هناك ، فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلاً : «إني أنا الله لا رب سواي فاعبدني أنت وبني إسرائيل» ، ومختصراً ما ورد فيها أن طاعة الله وعبادته والعمل بما يبلغه الرسول ، كل ذلك له في الآخرة ثواب وسعادة سرمدية فضلاً عن عاجلة الدنيا .

والإنسان بسوق الحب الذاتي ، لا يريد ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب سدى بعد الموت ، لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس مقبض للروح .

ثم لننظر ما جاء في الإنجيل وما قاله المسيح ، فنرى أنه قال : «بما معناه - أعطيتني سلطاناً على كل جسد لأعطي حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته . فالعيسوية هي ناموس جاء متمماً مكماً لما قبله من التوراة ، كما قال المسيح : «جئت لأتمم الناموس . . لا لأنقضه» . .

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية ، نرى القرآن مشحوناً بتوحيد الله ولزوم طاعته وعبادته ، بقوله : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ - ﴿قل إنما أمرت أن

(١) نفسه ، ص (٦٩) .

أعبد الله ولا أشرك به ﴿١﴾ - ﴿إياك نعبد وإياك نستعين . . .﴾ . هكذا ترى الأديان الثلاثة متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف .

ثم ننظر في المعاملات وما أجز منها في تلك الأديان وما نهى عنه فيها . نرى أن ما جاء به موسى ، أو ما أمره الله به من الوصايا ، قد عمل بها المسيح ولم ينقص ولم ينقص منها شيئاً . وكذلك محمد ، فإنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل^(١) .

هذه نتف من تصريحاته في هذا المستوى ، أما بخصوص مستوى الاختلاف والتنافر الذي تتحكم به الموجهات الخارجية فنجدته يختصر المسألة الشرقية في كونها «عراك بين الغربي والشرقي وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين ، فالغربي تذرع بالنصرانية والشرقي بالإسلامية ، وأهل الديانتين كالألة الصماء بأيدي محركيهما . فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة . والعاملون بالإسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين ، وإذا هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معاً»^(٢) .

ثم إن الواقف على مباني الديانة المسيحية يجد أنها «بنيت على المسألة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص وأطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين لها وترك أموال السلاطين للسلاطين^(٣) والابتعاد عن المنازعات الشخصية والقومية بل والدينية ، ومن وصايا الإنجيل «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . . .» ، ويعجب «تبعاً لذلك» - كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المتتسبين في عقائدهم إليه ، فإنهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيه ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون إلى افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون

(١) نفسه ، ص (٣٠٠ - ٣٠١) .

(٢) نفسه ، ص (٣٠١) .

(٣) نفسه ، ص (٣٠٩) .

الحرب وبيدعون في اختراع الآلات الحربية القتالية والمدمرات المهلكة ، ويستعملها بعضهم في بعض ويصلون بها على غيرهم على أن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية حتى بحفظ أملاكهم فضلاً عن الالتفات إلى طلب غيرها وقتل الأمم كأخذها من أيديهم . . . »^(١) .

أما «الديانة الاسلامية (التي) وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبد كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر إلى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات الحربية واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيها وما يلزمها من الفنون الطبيعية والكيمياء وحبر الأنقال والهندسة وغيرها . ومن تأمل آية ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ . أيقن أن من صُنِعَ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلبها واتخاذ كل ما يسهل إلى الوصول إليها وبذل الجهد والسعي بقدر الطاقة البشرية في سبيلها .

ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات إذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات حتى فاقتهم الأمم فيما كان من واجباتهم عمله ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها .

ومن وازن بين الديانتين حار فكره ، كيف اخترع مدفع كروب والمترايوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ! وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ، وكيف أحكمت الحصون ودرعت

^(١) لاحظ أن الأفغاني يمر أحياناً أشياء لا يعطيها حقها الكافي من التأمل والمتابعة ، وقد يعتبرها ثانوية أو غير ذات أثر . ولعل «ترك أموال السلاطين للسلاطين» هي امتداد للمقولة الزائفة المنسوبة للمسيح «أعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر» .

البواخر . . .»^(١). يُتبع الأفغاني هذه المعاني بجملة تساؤلات استنكارية وتوضيحية يعقبها بدورها أيضاً بتوضيحات للعوامل الخارجية المؤثرة في تشويه ومعالج الديانتين وتحريفهما معاً المسيحية والإسلامية، وتكشف أكثر النزوع العدواني للحضارة الغربية المخالف لتوجيهات دينها وتوجيهاته، وأيضاً الانتكاس والتراجع للحضارة الإسلامية المخالف لتوجهات دينها وتوجيهاته.

أما بخصوص المستوى الثالث التأويلي لبعض مظاهر الغلو والانحراف في المسيحية خصوصاً، فتمثل لهذا بما أجاب من أحد سائليه عن كون «النصرانية لا تعلم التوحيد، بل أساسها قائم على التثليث بعكس الموسوية والإسلام، والانجيل طافح بمثل أقوال المسيح «أنا الأب والأب في» ومثل قوله «أيها الأب مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً». حيث أجاب بقوله: «إن المسيح (صع) وضع أساس تعليمه والغاية من مجيئه، أن يكمل الناموس لا أن ينقصه، وناموس موسى بني على التوحيد، فلا يصح نقض ذلك الأساس. وإن وردت بعض الأقوال ما يخالف في ظاهرها ذلك الأساس، وجب الرجوع إلى التأويل وأن لا يرمى أي دين بالضعف والوهن.

وأما أمثال قول المسيح «أنا في الأب والأب في» فقد ورد عنه قوله: أبي وأبيكم «وكلهم أبناء الله يدعون». وفي التوراة كما ذكرنا، جاء «إسرائيل ابني البكر» وبهذه الأقوال كلها تصوف محض وورد في كلام أهل التصوف من المسلمين أقوال مغلقة مثل قول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي والخواص والجنيد والحاج والجبلي وابن مشيش والسهروردي والبكري وغيرهم . . . مثل «اللهم يا من ليس حجابك إلا النور ولا خفاؤه إلا شدة الظهور أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري، وتحولك في صور أسمائك وصفاتك بالوجود الصوري . . .». وكلام المسيح إن هو إلا غاية في التصوف ولا يصح حمله أو فهمه على صورته

(١) الخزومي: خاطرات، ص (٣٢٣-٣٢٥).

الظاهرية ، وإلا لا تنقض أساس الناموس الموسوي الذي إنما أتى ليتممه ، فلا يصح أن تنزل التوراة على موسى من عند الله «بالتوحيد» وينزل الإنجيل من عند الله على عيسى «بالتثليث» . . .^(١) .

ورأينا كما تقدم بعد ثبات التحريف والتبديل وضياع الأصول المدونة للكتب «المقدسة» السابقة على الاسلام ، هو تجنب التماس التأويل والمخارج .

ولو لزم فيها الأفغاني ما نص عليه هو نفسه من كون «اختلاف أهل الأديان . . ليس من تعاليمها ولا أثر له في كتبه (أي كما نزلت أصولها) - وإنما هو منع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون . رؤساء الأديان وما أنفعهم إذا صلحوا وما أضرهم إذا فسدوا»^(٢) .

ب) في ردود الأفغاني الثقافية والعلمية ومناقشاته .

كان الأفغاني حيثما حلّ وارتحل ليثاً لا يعدم فريسة - كما قال - ، في مواقف كان فيها محاوراً مناظراً ، ناقداً مصححاً مسدداً . في أوساط العامة والخاصة من الساسة والمثقفين ، وما يزال كثير منها مجهولاً وهي قطعاً لا تقل أهمية عن المدون لانها تصدر عن نفس التوجه وبنفس الحسم والحزم المعهود في الرجل في كل حالاته .

يحضرنا هنا طبعاً رد الأفغاني على رينان عندما كان بباريس سنة ١٨٨٣ عندما القى هذا الأخير محاضرة بالسوربون عن «الاسلام والعلم» ، وذكر «أن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات وإيمان تام بالقضاء والقدر (الجبر) . . وتولى جمال الدين الرد في جريدة «الديبا» وتلخص رده في . . «أن المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصدر هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة

(١) نفسه ، ص (٢٠٦-٢٠٨) .

(٢) نفسه ، ص (٢٠٣) .

التي انتشرت بها الديانة الاسلامية في العالم؟! أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة وعاداتها وملكانها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك؟؟^(١). وقد استطاع الأفغاني من خلال رده هذا وردود أخرى لها أن يكسب احترام كثير من مفكري الغرب وعلمائه، ويكفي أن نذكر من ذلك ما قاله رينان نفسه الذي جعلته ردود الأفغاني يرد ويعتذر عن كثير مما صدر منه في حق الإسلام، يقول: «لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين، فوقع في نفسي ما لم يقع لي إلا من القليلين، وأثر في تأثيراً قوياً وجرى بيننا حديث عقدت منه أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام موضوع محاضراتي في السربون. (. . .) وقد خيل إليّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء. . .»^(٢).

وسوف نركز في هذا الجانب على رسالته المشهورة في «الرد على الدهريين» لاعتبارات منها: «أنها أغنى وأدق ما خصص له الأفغاني وقتاً وفكراً في التقصي والتتبع، - وهي شاملة ومستوعبة تخدم أغراضاً عديدة وتطرق مجالات متعددة - إنها تحدد وتؤكد معالم منهجه في التعامل مع الآخر، المخالف للمرجعية والعامل على نقضها وهدمها سواء كان في الداخل أو الخارج.

ولهذا وإن كانت الرسالة قد جُرِّدت للرد على أحمد خان وحركته المدعومة من طرف الإنجليز، فإنها توسعت لتطال الجذور المرجعية الغربية وامتداداتها في الغرب والشرق معاً ومضاعفات ذلك مع تقديمه لأدوية وعلاجات لهذه الظاهرة

(١) محمد البهي: الفكر الاسلامي الحديث.. ص: . هناك من يذهب الى أن رد الأفغاني لم يُرض كثيرين من المسلمين الموجودين بباريس وقتها.. ويشكك في كون هذا الرد له، خاصة وأنه وصل الى باريس في أثناء إلقاء المحاضرة ولم يكن يعرف الفرنسية معرفة جيدة... انظر علي شلش: ج. د. الأفغاني بين دارسيه.. ص (١٣١).

(٢) مصطفى عبد الرازق، ترجمة الأفغاني - العروة ص (٢٣-٢٤). أيضاً، فتحي الرملي: البركان الثائر. ص (١١٣-١١٤).

المتحكمة بمسار الحياة الغربية وتابعيها إلى الآن^(١). يحدد الأفغاني منهجه في شرح مفهوم «الدهرية» والكشف عن المراد منه، ورفع الستار عن حال أصحابه ومفاسدهم في عنصرين مهمين:

- استناده على التاريخ الصحيح والرجوع إلى أصول الظاهرة . . .
- أخذه بالبرهان العقلي والأدلة الثابتة . .

وبالفعل نجده في تناوله لها يرجع إلى أصولها اليونانية فيما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد مستعرضاً أهم المذاهب السائدة وخاصة الطائفتين الكبيرتين (طائفة المتألهين) أي المثبتين للإله باعتباره ذاتاً (مجردة عن المادة والمدة) وأنه «المصدر الأول والموجد الحقيقي والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت أم مادية». وطائفة تنفي «كل موجود سوى المادة والماديات» وترجع أصل ذلك إلى الطبيعة (nature) ولهذا عرفوا بالطبيعيين، وذكر منهم فرقاً، كالتي تقول بـ «الاتفاق وأحكام الصدفة» والتي تقول بأن . . في كل بذرة نباتاً مندمجاً فيها وفي كل نبات بذرة كامنة، وفي كل حيوان كامن في الجرثومة جرثومة وبذرة هي بمنزل قالب يتكون في ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى . . .». وكان يعقب على كل واحدة بما يفند مزعمها في كلام موجز:

عقب على القائلين «بالصدفة» بأنهم «أدت بهم سخافة الفهم إلى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد أحالته بداهة العقل». ورد على أصحاب «التركيب اللامتناهي» بأنهم غفلوا «عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناه وهو من المحالات الأولية». ورد على أصحاب قدم الموجودات بالنوع وبالشخص وعدم قدم جزئيات الجراثيم الحيوانية والنباتية . . بأن «كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة، وكذلك الحيوان التام الخلقي قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها . .

(١) اعتمدنا متن الرسالة الموجود بكتاب الرملي: ج. د. الأفغاني البركان الثائر، ص: (١٨٣) وما بعدها، حيث تنحصر جميع الإحالات اللاحقة من غير ترقيم.

بنفس المنهج التأملي التاريخي والاستدلالي البرهاني نجده يناقش أصحاب الاتجاه التطوري انطلاقاً من أول النازعين الى هذا الرأي (أبيقور، أحد أتباع ديوجانس الكلبي) إلى آخرهم (داروين) وما أضفاه على تلك النظرية من تفسيرات حول تطور الانسان وارتقائه عن سلالات أخرى معترضا على ذلك كله بجملة تساؤلات تظهر بطلان هذا التفسير وتهافته، وتؤكد إبداع الخالق والصانع لهذه الموجودات ابتداءً^(١) وأن الطبيعيين في الهند إنما يمثلون أحوال الدهريين في أوروبا تمثيلاً مضحكاً، فهم «لا نصيب لهم من العلم، بل ولا من الإنسانية... بعيدون من مواقع الخطاب، ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض... ولولا الحاجة إلى «بيان المفسد التي جلبوها... والمضار التي تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعية» لما عرض لهم ولا كانت لي حاجة في ذلك.

لم يفت الأفغاني وهو يعرض مفسد الدهريين وأضرارهم أن يقدم البديل الديني والحضاري لما يزعمونه. ولهذا نجده يتحدث عن جملة من العقائد والخصال التي يقدمها الدين للانسان والتي تؤهله للسعي والرقى في الحياة الدنيا والإعداد للحياة الأخرى. ويذكر على رأسها ثلاث عقائد تفتقرها الحضارة الغربية، أو تملك في أحسن الاحوال صورة مشوهة عنها.

- «التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وهو أشرف المخلوقات».

- «يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل».

- «جزمه بأن الانسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيؤه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي».

فهذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الإنسان عن التقاطع المؤدي لافتراس بعضهم كما يقع بين الاسود الكاسرة والوحوش الضارية...»، وهي «أقوى دافع للأمم إلى

(١) في مكان آخر يعترف الأفغاني ببعض الجوانب التفسيرية لحركة المادة الحية وتطورها في نظرية داروين ما لم يصل الأمر إلى إنكار «النقطة الجوهرية وهي: موجد نسمة الحياة» ويرجع بعض هذه التفسيرات إلى التراث العربي ذاته. كما يشيد بجهود شميل ويكشف مواطن ضعفه في نشر النظرية. ص (١٧٣) وما بعدها (الخزومي - خاطرات).

التسابق لغايات المدنية، وأمضى الأسباب بها لطلب العلوم والتوسع في الفنون والإبداع في الطبائع . . . » و «أهدى قائد الإنسان إلى المدينة الثابتة المؤسسة على المعارف الحقّة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد اشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التي لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على صراط العدل المستقيم .» .

ويذكر تحت هذه العقائد خصالاً ثلاثاً مكملّة :

- الحياء ، و «هو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة وينعي عليها بالتوبيخ ، وتأثرها بالتلبس بما يعد عند الناس نقصاً . وفي الحق أن يقال : إن تأثير هذه الخلّة في حفظ نظام الجمعية البشرية وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع أشد من تأثير مئات من القوانين وآلاف من الشروط والمحتسبين . . .» .

- الزمانة وهي «روح المتعاملين والمتقاضين» وهي «إن فسدت اختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل» . فما من «أمة عطلت نفوسها من حيلة هذه الخلّة الجليلة . . لا تجد فيها إلا فئات جائحة ، ورزايا قاتلة ، وبلاياً مهلكة ، ونقلاً معوزاً ، . . ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع العدم وتلتهمها أمهات الهيم» . .

- الصدق ، وهو «ركن للوجود الإنساني ، وعماد للبقاء الشخصي والنوعي ، وموصل للعلائق الاجتماعية بين آحاد الشعوب . ولا تتحقق ألفة مدنية أو منزلية بدونه . وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق كيف ينيخ الشقاء بها رواحله ، وينفذ سوء البخت فيها عوامله ، وكيف ينثر نظامها ويفسد التثامها» . .

هذه الخصال الثلاثة زائد العقائد الثلاث ، هي عند الأفغاني «الأصول الستة» الضامنة لقيام الحضارة وعزتها .

وما يثير الانتباه فعلاً في انضباط منهجية الأفغاني ووضوح الرؤية والتصور لديه ، وقناعته المبدئية العميقة لما يدعو إليه ، حرص أشد الحرص على أن يوظف هذه العقائد والخصال المجردة والمعنوية توظيفاً واقعياً ملموساً ينهض ويمكن لما

حرص على تسميتها «الهيئة الاجتماعية» التي لا قيام للأمة بدون صلاحها وتماسكها وتكامل جهودها.

نجد في منهج استعراضي مقارن يذكر المزايا والإيجابيات لتلك الخصال والعقائد حال تمسك الأمم بها، والرزايا والمصائب التي تخل بها حال تخليها عنها. واستعمل نفس المنهج أيضاً في استعراض تاريخي مقارن لأحوال مجموعة من الأمم التي كانت في عزة ومنعة ثم تحولت إلى ضعف أو انهيار بعدما اجتاحتها الدعاوى الدهرية الطبيعية وانتشرت فيها، وضعت أو اندثرت فيها معالم «الأصول الستة»، كالأمة الفارسية، واليونانية، والإسلامية.

وعلى العموم فـ «متى ظهر النشرون في أمة نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأمة واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أي وجه كان». . «وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة وعدوها أو هاماً باطلة ومجعولات وضعية قالوا إن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات وسهلوا على الناس إتيان القبائح. وهونوا عليهم اقتراف المنكرات، ومهدوا لهم طرق البهيمية. . ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية. وبهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التائب ودفعوها إلى أنواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض ويسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع في كل رذيلة، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري».

«إن طائفة النيشيرية كلما نجمت في أمة أفسدت أخلاقها وأوقعت الخلل في عقولها، وتخطفت قلوب أحادها بأنواع من الحيل وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهي أساسها وتفطر بناؤها واغتالتها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات. . .».

وكأن الأفغاني هنا يصف واقعاً حاضراً للفلسفة العلمانية وتوجهاتها المادية والإباحية التي تحصر همها في «الفردوس الأرضي» لذّة ومتعة واشباعاً، وتتمركز حول الذات باعتبارها مرجعاً أولاً وأخيراً وتنفي كل المطلقات والثوابت والمرجعيات.

هذه بعض أبرز المعالم المنهجية - إن لم يكن كلها- لدى هذا المصلح الفذ في تعامله مع الآخر، وسّعنا فيها المجال لنصوصه حتى تبرز فيها أكثر وتفهم في سياقاتها. منهجية تقوم على خطاب إصلاحي يحصن الذات ويؤهلها ويدفعها للعمل والمواجهة كل ذلك بحوار قائم على أصول وأدلة ثابتة من الدين والعقل والتاريخ يعرضها في أسلوب خطابي وهو الغالب، أو كتابي وهو النادر ملؤه، القوة والوضوح والصراحة والعمق والجرأة والبيان والفصاحة والتتبع من أجل الإقناع... إلخ.

إنه النموذج المستفز الموقظ الذي ما تزال الأمة في حاجة ماسة إليه خاصة في ظروفها الراهنة، أمام قوى الاستكبار العالمي وما تفرض على الأمة من ذل وهوان واستضعاف واحتقار. المعاني السلبية القاتلة التي جرد حياته رحمه الله لمقاومتها وتخليص الأمة منها.